أمين معلوف و«غرق الحضارات»: عالمٌ فقدَ صوابه وأخلاقه

مهران الشامي[1]

"سموّ الأخلاق ضرب من الحنكة، والخسّة تصرف أخرق"! وعندما يخون بلدٌ قِيَمَه، فإنه يخون كذلك مصالحه.

في لبنان أو في سواه، "أسيء تقدير الطابع الخبيث والسام المتأصل في نظام المحاصصة".

عندما يتم تجريف بلد وتفريغه من نخبه الفكرية والسياسية، فمن الطبيعي أن لا يبقى فيه سوى عسكريين فاسدين بمواجهة ناشطين دينيين متطرفين.

العرب لم يتمكنوا من تجاوز صدمة هزيمة حزيران، ولم يشفوا منها قط لأنهم لم يتمكنوا من الثأر لأنفسهم بعدها.

"كيف انتهى بنا المطاف إلى هنا؟ ما الذي حاد عن مساره؟ ما هي المنعطفات التي كان من الخطأ سلوكها؟ هل كان في المستطاع تجنّبها؟ واليوم، هل يمكن بعد التحكم بالدفّة؟".

هكذا يبدأ أمين معلوف كتابه "غرق الحضارات"[2] الذي صدرت نسخته العربية عن "دار الفارابي" أواخر العام الماضي (ترجمة نهلة بيضون)، بعدما نُشرت النسخة الفرنسية في ربيع 2019، عن "دار غراسي" (باريس). يقع الكتاب في 322 صفحة من القطع المتوسط. ويضم أربعة فصول؛ (أولاً: فردوس يحترق، ثانياً: شعوب تائهة، ثالثاً: سنة الانقلاب الكبير، رابعاً: عالم متفكك)، إضافة إلى مقدمة وخاتمة.

يحوز معلوف على مكانة مميزة لدى المجتمع الغربي الذي منحه جوائز كثيرة، وكرّمه بعضوية الأكاديمية الفرنسية للآداب والفنون. لكنه يُعدّ كذلك واحدًا من أكثر الكتاب تفردًا وتأثيرًا في العالم العربي، سواءً من خلال أعماله البحثية مثل "الهويات القاتلة"، أو أعماله الروائية، مثل "ليون الأفريقي، وسمرقند، وحدائق النور، وصخرة طانيوس". وفي عام 2010، كان الاعتراف بحياته المهنية الطويلة من خلال منحه جائزة أميرة أستورياس.

كان من المفترض أن يكون الكتاب سيرة شخصية لمعلوف، لكنه تجاوز ذلك، ليُعنى من خلاله بقضايا جيوسياسية وموضوعات سوسيولوجية عالمية؛ غربية وعربية، في منتهى الأهمية والعمق والحساسية. تناولها من مختلف جوانبها الإنسانية والسياسية والاجتماعية؛ وخصوصًا أنه كان شاهد عيان على كثير من أحداثها، مما مكنه من الكشف عن مدى الترابط والتشابك بينها. ليضعنا في المحصلة أمام مشهد شامل لتلك (الانحرافات المتتالية)، كما يصفها، التي أصابت البشرية، ونقلتها إلى حافة الغرق واللجج العاتية.

---

(1) مهران الشامي: باحث سوري

(2) أمين معلوف، غرق الحضارات، نهلة بيضون (مترجمة)، (بيروت: دار الفارابي، 2019)، (322ص).

وقد فعل ذلك بدقة وأناة، وبأسلوب سلس وشائق، غلب عليه الطابع السردي والتأمل التاريخي، دارسًا ومتأملًا لتلك الأحداث بواقعية وعقلانية، وملاحظًا المخاطر التي تهدّد البشرية، من مختلف النواحي الاقتصادية والسياسية والثقافية والحضارية، لينتهي إلى خلاصة بسيطة، ولكن قاسية: "الحضارات الراهنة يمكن أن تغرق وتزول، مثلما حدث لسابقاتها"، في عالم يبدو كما لو أنه فقد صوابه وأخلاقه.

حضارات تمضي نحو هلاكها

فأمام التحولات الكبرى التي ضربت وما انفكّت تضرب العالم أجمع، يصل صاحب كرسي كلود ليفي شتراوس في "الأكاديمية الفرنسية للآداب والفنون" منذ عام 2011، إلى نتيجة خطرة مفادها أننا على "عتبة غرق شامل للحضارات، التي تمضي وسط الصخب نحو هلاكها"؛ من "الاحتباس الحراري"، وذوبان الكتل الجليدية الضخمة في القطبين الشمالي والجنوبي الذي يهدد بغرق بلدان بحالها في المحيط الهادئ؛ إلى الولايات المتحدة الأميركية، القوة العظمى الأولى عالميًا، التي تعاني إشكالات كبيرة تجعلها تتراجع وتفقد صدقيتها السياسية والأخلاقية؛ إلى القارة الأوروبية التي كانت تملك أكثر الأحلام الواعدة في عصرنا: "الاتحاد" ومبادئه الجامعة: الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية والأخلاقية، بينما نراها الآن وهي تتراجع وترتدّ عن مشروعها الوحدوي؛ إلى العالم العربي والإسلامي الذي يصارع ويتصارع وسط أزمات عميقة ومزمنة، تدفع شعوبه إلى حالة من اليأس شبه التام[3].

ومن المعروف عن معلوف، منذ بداية مسيرته الإبداعية والفكرية، مطلع الثمانينات من القرن الماضي، اهتمامه بالتاريخ، وبـ"الآخر". وهذا ما فعله منذ روايته التاريخية الأولى، "الحروب الصليبية كما رآها العرب"، وصولًا إلى كتابه الأخير الذي بين أيدينا الذي يميل بعضهم إلى إدراجه كجزء ثالث في قراءة تأملية للمشهد السياسي العالمي؛ بدأت بـ"الهويات القاتلة" الذي تحدث فيه عن بزوغ عصر "الهويات المتشظية" التي لا تعترف بالآخر ولا ترغب في التعايش معه، وهو ما قاد إلى الحروب والتناحر بين أبناء الوطن الواحد على أسس طائفية أو دينية أو عرقية أو غيرها. ومن ثم كتاب "اختلال العالم"، الذي يتحدث فيه عن التصدعات التي نالت من النظام العالمي بعد الحرب العالمية الثانية، وخصوصًا بعدما بسطت الديكتاتوريات سيطرتها، وتنامت التيارات المتطرفة.

"مشروع عسكري" مرّ من هنا

ويبدأ معلوف كتابه من مصر التي انتقل إليها مع أسرته بعد أسابيع قليلة من ولادته (شباط/ 1949)، بوصفها كانت "وطنًا ثانيًا لأسرة أمّه". مصر التي كانت آنذاك بلدًا استثنائيًا يعيش حقبة مميزة من تاريخه. إذ كانت تشهد ازدهارًا حقيقيًا في شتى صنوف الثقافة والأدب والموسيقى والمسرح. والمهاجرون إليها جميعهم يشعرون أنهم "مدعوون إلى الانخراط والتفاعل فيها، شأنهم في ذلك شأن السكان المحليين".

وقتذاك، كانت السيدة أم كلثوم تغنّي "رباعيات الخيام"، والمهاجرة السورية الأصل، أسمهان، تحيي "ليالي الأنس في فيينا"، والمصرية اليهودية، ليلى مراد، تلهب الصالات بأغنيتها الشهيرة "أنا قلبي دليلي". كما كنتَ تجد

(3) المصدر السابق، ص17.

فيها الشاعر اليوناني الشهير، كفافيس الذي ولد وتوفي في الإسكندرية (1863 إلى 1933). وفيها أبصر النور أيضًا عام 1888 الشاعر الإيطالي العظيم جوزيه أونغاريتي الذي عاش فيها سنوات حياته الأولى.

وفي تلك الآونة (عام 1926)، نُشِرَ كتاب "في الشعر الجاهلي" لطه حسين الذي أدى إلى تكفيره على خلفية خشية بعضهم من تطبيق نهجه المناهض للمعتقدات التقليدية على النصوص الدينية. هذا الغنى والتنوع الثقافي اللذين كانت تتوافر عليهما مصر وُضِع حدّ لهما مع مجيء حكم الضباط الأحرار[4].

ومع استيلائهم على السلطة، بزغ نجم جمال عبد الناصر الذي اتخذ جملة من التدابير لاستعادة الشعب المصري "السيطرة على أراضيه وموارده ومصيره"، كما قال، ومنها عمليات ضبط، ومصادرة أملاك، واحتجاز، ونزع ملكية، وتأميم... إلخ، بهدف تجريد أصحاب الأملاك من ممتلكاتهم، وخاصة الغرباء منهم. وهو ما أفضى، في النتيجة، إلى هجرة تلك العائلات أغلبها[5].

"حبيب الملايين"

وما هي إلا سنوات قليلة حتى أدّت تلك السياسات إلى نزوح جماعي للطوائف جميعها التي يقال عنها "متمصّرة"، (ومنها عائلة معلوف التي عادت إلى لبنان)، على الرغم من أنّ بعضها كان موجوداً منذ قرون على ضفاف النيل. وفي المقابل، أصبح عبد الناصر حبيب الملايين في مصر والعالم العربي، ويستثير آمالًا عظيمة لدى أنصاره ومؤيديه.

وشيئًا فشيئًا، ألفى معلوف نفسه يُعجَب بـ"مُغتصب أملاك" أسرته، ويصغي إلى خطاباته بشيء من التعاطف، بل يدافع عنه، بين الحين والآخر. فالعصر كان "عصر التحرر الوطني، وحق الشعوب في تقرير المصير، والنضال ضد الاستعمار والامبريالية، وضد نهب ثروات العالم الثالث، وضد القواعد الأجنبية"[6].

وبحسب قول معلوف: "مهما كان عبد الناصر ديكتاتورًا عسكريًا...، إلا أن الأمة العربية كانت في عهده تحظى بالاحترام. كان لديها مشروع، ولم تكن قد غرقت في الشقاء أو في الحقد على الذات"، فضلاً على أنه لم تكن هناك معارك طائفية[7].

ويدافع معلوف عن موقفه هذا، رأى أنّ بعض الشخصيات التاريخية تشبه الاله الروماني جانوس ذا الوجهين. شخصيات رفيعة المقام أدّت دورًا تاريخيًا ينتزع الاعجاب، لكنها أدت كذلك، دورًا مقيتًا، بل ومدمرًا. ويرى أن هذا ينطبق على عبد الناصر وتشرشل. فالأول وظّف كل طاقته لوضع حدّ للهيمنة الأجنبية، ولكنه بتحطيمه لها، ألغى كذلك، "أسلوب عيش ارتبط بها، وكان يمكن أن يشكل عاملًا لا يُعوّض من عوامل الترقي والحداثة".

أما تشرشل، وعلى الرغم من دوره المحوري في هزيمة النازية، إلا أنه كان على النقيض من ذلك في التعامل مع النحاس باشا، الوطني المعتدل والنصير الجريء للحداثة، الذي عهد لأحد المستنيرين (طه حسين)، بوزارة التربية والتعليم. وبرفضه سحب القوات البريطانية المتواجدة في قناة السويس، ساهم في إفشال حُكم مصطفى

(4) المصدر السابق، من ص29 إلى ص32.

(5) المصدر السابق، ص39-ص40.

(6) السابق، ص42- 44.

(7) السابق، ص107.

النحاس، مع أنه كان، "مؤيدًا لنظام ديمقراطي برلماني على الطريقة الغربية"، وليس بصدد الدخول في مجابهة مع بريطانيا العظمى!.

لم يكترث تشرشل، كما يوضح معلوف، بالآثار الجانبية المروّعة التي ترتبت على أفعاله وتعنّته. فمن دون المجزرة التي وقعت في 1952/1/25، والتي سمح أو أوعز بها، لربما كان يمكن أن يسود شكل آخر من الوطنية، وأن يسلك مستقبل مصر، والعالم العربي، مسلكًا مختلفًا كل الاختلاف. وغداة حريق القاهرة الكبير (في اليوم اللاحق للمجزرة)، اضطر النحاس باشا الذي خسر رهانه وصدقيته إلى تقديم استقالته، "ولن يؤدي بعدها أي دور مهم في حياة البلد. ولا يقتصر الأمر عليه، فستغادر الطبقة السياسية القديمة برمتها الساحة، وسط هتافات الاستنكار، إلى غير رجعة".[8]

ويضيف صاحب "سمرقند" أنّ ذنب هذا الرجل يتضح بقدر أكبر في ملف آخر، هو ملف إيران، والدور الذي لعبه في تحريض واشنطن على الانقلاب على حكومة الدكتور مصدّق، وهو ديمقراطي حداثي كانت جريمته الوحيدة أنه طالب لشعبه بنصيب أكبر من عائدات النفط. ويخلص إلى أنّ ما فعله تشرشل في مصر أسهم بنشأة القومية العربية بشكلها السلطوي المعادي للأجانب، كما مهد السبيل، بما فعله في إيران، أمام مجيء النظام الإسلامي الخميني.

بين عبد الناصر ومانديلا

ولكن، هل كان ثمة سبيل آخر، غير الذي فعله عبد الناصر؟. نعم، يجيب معلوف. إنه موقف القائد الجنوب إفريقي نيلسون مانديلا. فهو لم يتساءل إن كان البيض قد ساندوه في معركة التحرير والقضاء على نظام التمييز العنصري أم لا، أو إذا كانوا يستحقون أن يشكلوا جزءًا من الأمة الجديدة أم لا، هذه الأسئلة كلها أهملها وأزاحها جانبًا، وجال في خاطره سؤال مختلف كليًا: هل سيكون بلدي على ما يرام إذا رحل منه "الأفريكانير"؟. والجواب بدا بدهيًا: "من أجل استقرار جنوب إفريقيا، وعافيتها الاقتصادية، وحسن سير مؤسساتها، وسمعتها في العالم، من الأفضل استبقاء الأقلية البيضاء، أيا كان السلوك الذي بدر منها، ولقد فعل الرئيس الجديد كل ما يلزم لتشجيع أعداء الأمس على عدم الهجرة!". وكانت إحدى اللحظات شديدة الرمزية، الزيارة التي قام بها إلى السيدة فرفورد، أرملة رئيس الوزراء الذي ألقى به في السجن، ليتناول معها الشاي ويطمئنها على المستقبل[9]. (غرق الحضارات/ ص 51).

ويتساءل معلوف؛ هل تصرّف مانديلا على هذا النحو كان من باب الحنكة السياسية أم سموّ الأخلاق؟ ليصل إلى نتيجة تفيد أنّ "سموّ الأخلاق ضرب من الحنكة، والخسّة تصرف أخرق"!. وبأنه عندما يخون بلدٌ قِيَمَه، فإنه يخون كذلك مصالحه. وبأنّ حالات التهجير والطرد الجماعي لجماعة أو فئات من السكان من بلد ما، غالباً ما تفضي إلى إفقاره، بعيدا من الحديث الأجوف عن أسطورة "التجانس"!.

(8) السابق، ص46-47.

(9) السابق، ص51.

سقوط تجربة «المحاصصة»

ويستكمل معلوف تحليله المشهدَ السياسي العام في المشرق العربي، مُنتقلًا إلى لبنان. فصاحب "صخرة طانيوس" التي رسم فيها صورة عن الصراعات الحادة التي اندلعت في لبنان، منتصف القرن التاسع عشر، وفازت بجائزة غونكور في عام 1993، كان شاهد عيّان على سقوط بلده الأم، وتحولها من بلد صغير كان يمكن أن يكون نموذجًا ناجحًا للعيش المشترك بين كلّ أنواع الطوائف والمذاهب والإثنيات التي يتشكل منها، إلى بلد آل إلى مصير بائس، وأصبح ساحة مفتوحة تُخاض فيها، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، معارك كثيرة بين أطراف دولية وإقليمية متعددة، وكلّ منها يحصل على دعم هذا الطرف المحلي أو ذاك، من دون الاكتراث للبلد وتوازناته الهشّة (...)، وفي نهاية المطاف، تزعزعت مؤسساته السياسية، وقُوّض اقتصاده، وأصبح الفساد نهبًا منهجيًا، بينما الشعب محروم من الخدمات الأساسية".[10]

في لبنان، أو في سواه، "أسيء تقدير الطابع الخبيث والسام المتأصل في نظام المحاصصة". فالمواطنون، عوضًا عن الالتفات نحو الدولة للحصول على حقوقهم، أصبحوا يرون أنه من الأجدى لهم المرور بزعماء طوائفهم. وأصبحت هذه الطوائف دويلات مستقلة ذاتيًا تحكمها عصابات أو ميليشيات مسلحة، وتضع مصالحها فوق المصلحة الوطنية"[11].

هل أسهم مسار الأنظمة الحاكمة، بمختلف صنوفها، بتقويض فرص التطور الطبيعي، الاجتماعي والسياسي، في العالم العربي والإسلامي؟ أم إنّ المجتمعات الإسلامية تأنف العلمانية والحداثة بحكم طبيعتها وديانتها؟. للإجابة عن هذين السؤالين يلفت معلوف انتباهنا إلى أنّ هذه المجتمعات كانت مثل غيرها في بقية أرجاء العالم، تشهد تجاوبًا طبيعيًا مع الأفكار اليسارية والطروحات الماركسية. وكانت الأحزاب الشيوعية والحركات المتأثرة بالماركسية مزدهرة في كثير من بلدانها، كما في السودان وسورية والعراق واليمن... إلخ.

كانت هذه الحركات هي "الوحيدة التي تضم في صفوفها أعضاء من جميع المذاهب والأديان"، (مسلمون ومسيحيون ويهود...). ويسوق مثالًا على ذلك، القيادي الشيوعي العراقي المعروف بـ"الرفيق فهد"، الذي ينتمي لأسرة مسيحية آشورية، و"لم يصبح زعيم الحزب الشيوعي العراقي فحسب، بل كذلك إحدى أكثر الشخصيات الشعبية في البلد، ولدى جميع الطوائف"، قبل أن يُعدم في عام 1949.

وفي هذا المضمار، يذكّر معلوف بما حصل للحزب الشيوعي الإندونيسي الذي في كان مرحلة من أكبر الأحزاب الشيوعية في العالم، قبل أن يتعرض إلى ما يسميه "عملية إفناء جماعي ومنهجي" حصدت أكثر من نصف مليون شخص، من قيادات الحزب وكادراته وأعضائه، ذُبحوا بلا شفقة، وغالبًا مع أفراد أسرهم.

وينوّه معلوف إلى أنّ هذه المجازر شكلت عملية "إفناء نخبة فكرية تحمل تطلعات حداثية وعلمانية"، وعندما يتم تجريف بلد وتفريغه من نخبه الفكرية والسياسية، فمن الطبيعي أن لا "يبقى فيه سوى عسكريين فاسدين بمواجهة ناشطين دينيين يزدادون تطرفًا". وهكذا يجري مصادرة مستقبل بلد يضم غالبية عظمى من المسلمين، كان يمكن أن ينهض و"يقوم على الحداثة والتقدم والتنوع والتعددية".[12]

(10) السابق، ص73، 74، 75.

(11) السابق، ص80.

(12) السابق، ص202، 203.

وفي السياق، يلفت معلوف إلى أنه "لم يعد يوجد في العراق، ولا في سائر المنطقة، حركة سياسية يمكن أن يرأسها شخص ينتمي لطائفة دينية صغيرة. هذا فضلًا عن اضطرار مسيحيي بلاد ما بين النهرين إلى الهجرة ومغادرة البلد نهائيًا، على رغم أنهم كانوا يعيشون فيها منذ آلاف السنين!. وينتهي إلى القول بأنّ "المشهد المفجع الذي يتراءى لنا عن الكوكب حاليًا، هو نتاج كل تلك الإفلاسات الأخلاقية، وكلّ تلك الخيانات"[13].

ويتساءل معلوف عن السبب الذي حدا بالأقليات إلى الانضمام إلى الأحزاب الشيوعية في القرن الماضي، إذ لم يكن من قبيل المصادفة أن "الزعيم التاريخي للحزب الشيوعي العراقي كان مسيحيًا، ونظيره السوري كان كرديًا.. إلخ". ويخلص إلى أنّ "مصير المنتمين إلى الأقليات يعدّ مؤشرًا معبرًا عن مشكلة أوسع نطاقًا، تشمل جميع مواطني بلد ما، وجميع جوانب حياته الاجتماعية والسياسية"، ويضيف: "عندما لا يستطيع المواطن أن يمارس حقوقه كمواطن من دون الإشارة إلى أصوله الاثنية أو الدينية، فهذا يعني أن الأمة بأسرها قد سلكت طريق الهمجية"، مشيرًا إلى موقف النازيين من اليهود، وكيف كان "قاتلًا ومدمرًا لمجمل الأمة الألمانية".[14]

ولكن معلوف لا يخبرنا هنا، ماذا لو كان الأمر معكوسًا؟، أي عندما تكون الأغلبية هي التي في موقع الاضطهاد من قبل أقلية وصلت إلى الحكم في هذا البلد أو ذاك، حتى لو كانت هذه الأقلية عرضة لاضطهاد سابق، ليجري تبادل "المظلوميات"، والقيام بأعمال تنكيل وممارسة أبشع أنواع القمع والقهر، وحتى جرائم التهجير وحروب الإبادة بحق الأكثرية، وأحيانًا تحت عنوان "حماية الأقليات"، سواءً تم ذلك على نحو معلن أم مبطن، كما يحصل الآن في سورية مثلًا.

هزيمة حزيران

ويعزو معلوف "أصل الانحراف" الذي شهدته المنطقة العربية إلى هزيمة حزيران 1967، أو "النكسة"، كما فضّل عبد الناصر ونظام البعث في دمشق تسميتها آنئذٍ، للتقليل من أهميتها. فبعدها، كما يقول، فقدت إيديولوجيا "القومية العربية" جاذبيتها، وكان المستفيد الأكبر من ذلك هو تيارات الإسلام السياسي[15].

ويرى معلوف أن الهزيمة أسّست لكل ما جرى بعدها من انحرافات و"يأس عربي"، فالعرب لم يتمكنوا تجاوزَ صدمة الهزيمة، ولم يشفوا منها قط، لأنهم لم يتمكنوا الثأرَ لأنفسهم بعدها. لا على المستوى العسكري، (كما انتصرت الولايات المتحدة في الحرب الكونية الثانية بعد صدمتها بمعركة "بيرل هاربر" 1941، وكذلك فرنسا بعد انهيار جيشها أمام الألمان في حزيران/ يونيو 1940)، ولا على المستوى الاقتصادي، كما فعلت كلٌّ من ألمانيا واليابان بعد هزيمتهما في الحرب، أو كوريا الجنوبية بعد الحرب الكورية. ولا على المستوى السياسي الذي ما توقف عن الانحدار والتراجع أبدًا، بل وصل إلى مستويات كارثية في عدد من الدول العربية التي تحولت؛ إما إلى دول فاشلة بالكامل، أو إلى مجرد ساحات لحروب ومعارك نفوذ القوى الدولية والإقليمية في المنطقة وعليها.

"إحباط العرب قد يعود إلى عهد سحيق"، ولكن حتى حزيران 1967، يُشدد معلوف، كان العرب ساخطين،

(13) السابق، ص95، 96، 205.

(14) السابق، ص100، 101.

(15) السابق، ص114.

ولكنهم يعللون النفس بالآمال. بعد الهزيمة، تبدّدت آمالهم وولدت مرحلة اليأس العربي".[16]

والأنكى من ذلك، كما يضيف معلوف، هو قناعة الشعوب العربية بأن "سائر العالم متحالف ضدهم، ولا يحترمهم، ويبتهج لرؤيتهم مذلولين..". ويوضح: "الأسوأ بالنسبة للمهزوم ليس الهزيمة نفسها، بل أن يصنع منها متلازمة المهزوم الأبدي، فينتهي به الأمر أن يكره البشرية جمعاء ويدمر نفسه".[17]

وإلى ذلك، فإن معلوف يعتقد أنّ "الهزيمة أحياناً فرصة، والعرب لم يحسنوا اغتنامها، والانتصار أحيانًا فخّ، والإسرائيليون لم يحسنوا تفاديه" كذلك، لأنه شجّع لديهم ذهنية، "عدم الحاجة إلى تقديم تنازلات"، من منطلق: "لمَ الاستعجال؟، وماذا بوسع العرب أن يفعلوا؟". وهنا يؤكد معلوف أنّ "سلام الشجعان لا يبرم إلا بين خصوم يتبادلون الاحترام، ولقد قوضت هزيمة حزيران هذا الاحترام".[18]

"الانقلاب الكبير": 1979

مأساة "سبعة وستين" هي منعطف حاسم على طريق الشقاء والضياع، لكنها لا تبرّر كلّ ما جرى. وبحسب معلوف، فإنّ ما زاد الطين بلّة، هو بروز ظاهرة تاريخية أعمق في التأثير والامتداد الزمني، تمثلت بداية في ثورتين محافظتين في العام 1979، على ما بينهما من اختلاف وتناقض: "الثورة الإسلامية" في إيران، و"الثورة المحافظة" التي أرست مارغريت تاتشر دعائمها في بريطانيا، بدءًا من أيار/ مايو 1979، ممثلة لليمين الغربي المحافظ اقتصاديًا واجتماعيًا.

ولقد كان لكل من الثورتين، كما يرى معلوف، "انعكاسات كبرى على العالم بأسره، فأفكار تاتشر سرعان ما انتقلت إلى الولايات المتحدة مع وصول رونالد ريغان إلى البيت الأبيض (مطلع عام 1981). أما الرؤية الخمينية لإسلام ثوري ومحافظ على السواء، معادٍ بشدة للغرب، فستنتشر في جميع أنحاء المنطقة، وتتخذ أشكالًا شديدة التنوع، وتطيح المقاربات الأكثر توافقية".

ومن الآن فصاعدًا، يضيف معلوف: "سيتبنى زعماء كثيرون من اليمين واليسار على السواء تعاليم الثورة المحافظة الأنغلو. أميركية (على الضد من دولة الرعاية الاجتماعية)، بحماسة حينًا، وبإذعان أحيانًا أخرى. وستصبح تدابير من قبيل الحد من تدخل الحكومة (الدولة) في الاقتصاد، وتقليص النفقات الاجتماعية، وإطلاق يد أصحاب المشاريع، والتخفيف من تأثير النقابات، بمنزلة معايير يقاس بها حسن إدارة الشأن العام".[19]

وإلى ما سبق، يضيف معلوف ما قام به دينغ شياو بينغ من إصلاحات اقتصادية في الصين، بعد أن تسلّم زمام السلطة في بيجين نهاية العام 1978. ويطلق على هذه الإصلاحات "ثورة محافظة"، معتبرًا أنها كانت تستلهم ما يسميه "روح العصر"، لجهة "التخلص من الإدارة المركزية والبيروقراطية للاقتصاد التي أدّت في كلّ مكان إلى انعدام الكفاءة والفساد والإحباط العام (...)، والسعي إلى انشاء اقتصاد أكثر حيوية وعقلانية وانتاجية

(16) السابق، ص115.

(17) السابق، ص122.

(18) السابق، ص129، 133.

(19) السابق، ص168، 169، 171.

وتنافسية".[20]

هنا يمكن أن أفتح قوسين لأشير إلى أنّ وباء كورونا (كتاب معلوف وضع قبل حدوثه طبعًا)، غيّر ولو قليلًا من "روح العصر" هذه، وعادت برامج القادة والأحزاب الغربية، والعالمية عمومًا، تتحدث عن ضرورة اضطلاع الدولة بوظيفة أساسية في مواجهة الأوبئة الصحية والكوارث الاجتماعية والمناخية. بل وتمّ تسليط كثير من الأضواء على "الأنظمة الصحية" المعمول بها. وأخذت تجري مقارنات ومفاضلات تتعلق بنجاعة هذه "الأنظمة" بين هذه الدولة أو تلك!.

"وظيفة الدولة" هذه، كانت قد تمّت العودة "الاضطرارية" إليها عند نشوب أزمة "الركود الكبير" في ثلاثينات القرن العشرين، وتدخلت الدولة آنئذٍ مُتّبعة التعاليم الكينزية (نسبة إلى العالم الاقتصادي كينز). كما جرت العودة إلى الحديث بشأنها، بل وتدخلها الفعلي، عند نشوب الأزمة المالية في الولايات المتحدة سنة 2008، قبل أن تمتدّ إلى أغلب بلدان العالم. وهذا ما أغفله معلوف، أو لم يركّز عليه كثيرًا عند مروره على واقع البلدان الغربية. وفي الواقع، بدا الأمر وكأنه قد طُمس حقًا مع تقدم قوى اليمين الشعبوي والقومي في تلك البلدان، وتركيزها على أولويات مختلفة تتصل بهواجس الهجرة والأمن (الإرهاب)، والتشكيك في جدوى الاتحادات والتكتلات، والمؤسسات عمومًا بما فيها مؤسسات الدولة، ناهيكم عن نشوب الحروب التجارية المتعدّدة!.

وبالعودة إلى "الثورات المحافظة"، فإنها قد فاقمت كذلك من التوترات المرتبطة بالهوية. وهذا ليس من قبيل الصدفة، كما يعبّر معلوف، فـ"خطاب التيار المحافظ يتسم بنبرة مرتبطة بالهوية، تقوم على الدين أو الأمة أو الأرض أو الحضارة أو العرق أو على مزيج من ذلك كله. نصادفها لدى الجمهوريين الأميركيين، ولدى الإسرائيليين في حزب الليكود، ولدى القوميين الهنود من حزب الشعب الهندي، ولدى حركة طالبان في أفغانستان، ولدى الملالي في إيران...[21]

"الفخّ" الأفغاني

ويشير معلوف إلى الدور "الخبيث" الذي لعبه الرئيس جيمي كارتر، بمساعدة مستشاره للأمن القومي، زبيغنيو بريجنسكي (البولندي الأصل، والرجل المحنك والخبير في شؤون الأوضاع الجيوسياسية للعالم، والذي كان يحلم بزعزعة الامبراطورية التي بناها السوفيات، أو تفكيكها، كحلّ أمثل).

ولتحقيق ما سماه بريجنسكي لاحقًا اقحام النظام السوفياتي في "فيتنام ثانية"، أقنع الرئيس كارتر بالتوقيع على اتفاق سري مع المجموعات المسلحة المعارضة في أفغانستان للقيام بعمليات ميدانية للإيقاع بالاتحاد السوفياتي ودفعه للتدخل العسكري المباشر. وكلنا نتذكر آنئذٍ كيف انهالت المساعدات المادية والعسكرية من جانب الدول الإسلامية والعربية الغنية على "المجاهدين الأفغان"!.

ويستشهد معلوف بما قاله بريجنسكي نفسه في مقابلة صحافية أجريت معه في العام 1998: "وفق النسخة الرسمية للتاريخ، بدأت وكالة الاستخبارات الأميركية تقديم المساعدة إلى المجاهدين خلال عام 1980، أي بعد

(20) السابق، ص208.

(21) السابق، ص214.

أن اجتاح الجيش السوفييتي أفغانستان في 24 كانون الأول/ ديسمبر 1979. ولكن الحقيقة التي أحيطت بالكتمان مختلفة كليًا: ففي الواقع لقد وقع الرئيس كارتر في 3 تموز/ يوليو 1979، التوجيه الأول بشأن تقديم المساعدة السرية إلى خصوم النظام الموالي للاتحاد السوفياتي في كابل.

وسيردّ على الصحافي الذي سأله إن كان يشعر بأي ندم: "كانت تلك العملية السرية فكرة ممتازة. ولقد استطاعت اجتذاب الروس إلى الفخ الأفغاني، وتريدني أن أندم عليها؟ وفي اليوم الذي اجتاز السوفيات رسميًا الحدود، كتبت إلى الرئيس كارتر ما فحواه: "لدينا الآن الفرصة لنقدم للاتحاد السوفياتي حرب فيتنام الخاصة به".[22]

وبالفعل، كانت أفغانستان كذلك تمامًا بالنسبة للاتحاد السوفياتي، وهو ما أسهم إلى حد كبير بانهياره. والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن؛ تُرى، هل يعيد التاريخ نفسه بما يتصل بالتدخل العسكري الروسي في سورية؟ وهل يكون الأمر "فخًّا" جديدًا نُصب للروس، على أمل تحويل سورية إلى مستنقع آخر جديد لهم؟

ثمّ ألا يصحّ التساؤل، إن كان المسؤولون الأميركيون قد أدوا دور "السحرة المشعوذين" كذلك بتشجيعهم ودعمهم لقوى سرعان ما انقلبت عليهم أنفسهم؟ وذلك، بعد أن شرعت "الجهادية الإسلامية" بالخروج عن سيطرتهم وتوجيه هجماتها، وبشراسة قلّ نظيرها، إلى أهداف غربية.

"الإذلال" الغربي لروسيا

تقويض المنزل المعنوية للولايات المتحدة لم يبدأ مع عهد الرئيس دونالد ترامب، كما يحلو لبعضهم أن يردّد، بل بدأ قبل ذلك بكثير، كما يرى معلوف، وذلك عندما تعمّد الغرب، وفي المقدمة منه أميركا وقادتها، إذلال روسيا، وعدم مدّ يد المساعدة الحقيقية إليها، بعد الإصلاحات التي دعا إليها الزعيم الأخير للاتحاد السوفياتي، ميخائيل غورباتشوف. فـ"لم تُبذل أي جهود لإنقاذه، وتُرك الاتحاد السوفياتي ينحلّ، ثم شُرِعَ في تقطيع أوصاله".[23]

لقد علت بعض الأصوات الأميركية المحذرة من خطر ما يجري، ومن أنّ "إذلال الروس سيؤدي إلى تعزيز صعود التيارات القومية والمؤيدة للعسكرة، وتأخير مسيرة البلد نحو الديمقراطية"، لكنها لم تلقَ آذانًا صاغية. "الولايات المتحدة لم تستطع النجاح في الامتحان العسير الذي وضعها التاريخ أمامه. فخلال العقود الثلاثة التي أعقبت انتصارها وتتويجها، أثبتت عجزها عن الحفاظ على مصداقيتها الأخلاقية التي تراجعت إلى أدنى مستوياتها"، مثل ما يرى معلوف.[24]

ويتابع معلوف: "لم يحصل التقوض الأخلاقي مرة واحدة، بل عن طريق سلسلة طويلة من الانزلاقات والإخفاقات والتراجعات أو العثرات. فأظهرت أحيانًا نزعة محمومة للتدخل، (كما حصل إبان أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001)، ساعية إلى تحطيم أنظمة وإعادة تشكيل مناطق برمتها"، وأحيانًا أخرى بدّلت

(22) السابق، ص196.

(23) السابق، ص267.

(24) السابق، ص271.

موقفها رأسًا على عقب، ولم تتدخل إطلاقًا، تاركة المتحاربين المحليين يتناحرون ما طاب لهم.[25]

وبلغ الموقف الأخير ذروته في أيلول/ سبتمبر 2013؛ فبعد أن أكد الرئيس أوباما، على نحو قاطع، أنّ "استخدام الأسلحة الكيميائية في سوريا "خطٌ أحمر"، ممنوع تجاوزه.."، قرّر فجأة الامتناع عن تنفيذ وعيده، تاركًا كثيرًا من الضواري المفترسة يفلتون من العقاب.

(25) السابق، ص271، 272.